

دولة باكستان

في مقال سابق تحدثنا عن الهند بين الوحدة والتقسيم (١) ، وذكرنا أن التفرقة في حياة الهند لا ترجع إلى فعل المستعمرين وحده ، وإنما هي ترتبط بعوامل أعمق كثيراً مما يبدو في ظاهر الأمر ؛ فهي تتصل بطبيعة البلاد الهندية وانقسامها أقساماً متباينة من حيث التوجيه الجغرافي ؛ وهي تتصل بتاريخ الهند العمراني والاجتماعي والثقافي ، ذلك التاريخ الطويل الحافل بعوامل الخلف والتفرقة بين السلالات والجماعات والطوائف والديانات واللغات وغير ذلك ، مما يصعب معه الجمع بين سكان الهند في أمة واحدة . وغاية ما حدث في تاريخ الهند الحديث أن الانجليز وجدوا في تلك البلاد مجالا واسعاً مارسوا فيه سياسة التفرقة ، وحقلاً خصباً استنبتوا فيه بذور الشقاق ، فكانوا مستعمرين مهرة عرفوا كيف يعيدون من الهند كيدان للاستعمار ، ووجهوا أسباب الشقاق إلى ما يخدم أغراض المستعمرين ، ولا يمهّد السبيل إلى تقارب أو تساند بين جماعات الشعب وطوائفه في تلك البلاد ، بل لا ينير السبيل أمام الهنود عليهم أن يبتدوا إلى لون من ألوان الاتحاد السياسي بين أجزاء الهند ، اتحاداً لا يبعد أن يعوض تلك البلاد عن بعض ما فوتت عليها الظروف من وحدة قومية شاملة .

ونود في هذا المقال أن نتبع نشأة دولة باكستان ، إحدى الدولتين الكبيرتين اللتين انتهى إليهما تقسيم الهند ؛ وأن نحاول أن نكشف عما تستند إليه تلك الدولة الإسلامية من مقومات في الطبيعة والتاريخ والاقتصاد والتكوين البشري والاجتماعي ، كما نتبع ما ينبغي أن تقوم عليه صلات تلك الدولة ببقية الهند ، بما في ذلك الهند المتحدة أو هند باكستان ، والامارات الهندية

(١) الكاتب المصري عدد ٢٥ (أكتوبر ١٩٤٧) .

الكثيرة التي قد ينتهي بها الأمر إلى أن تختار الاستقلال على الاندماج في إحدى دولتي الهند الكبيرتين .

وقد يكون من المفيد في هذا المقام أن نرجع إلى التاريخ ، علّه أن يلقى شيئاً من الضوء على ما وراء فكرة باكستان ودولتها الاسلامية في الهند . ولقد دخل المسلمون أول ما دخلوا إلى الهند في عهد الدولة الأموية ، فالدولة العباسية ؛ ولكن أولى الغزوات الواسعة النطاق إنما جاءت أيام فتوح محمود الغزنوي في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، حين قامت للمسلمين دولة في شمال غرب الهند ؛ ثم اتسع نفوذ المسلمين ونطاق ملكهم ، حتى بسطوا نفوذهم على بعض جهات بنغالة في شمال الهند الشرقي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ وصحب ذلك انتشار الاسلام بين الهنود الأصليين . وكذلك امتدت سيطرة الحكام المسلمين إلى بعض جهات الهند الوسطى في جوجرات والدكن وغيرهما ؛ وظهرت للمسلمين في الهند دولة قوية في القرون الوسطى ، لا سيما أيام المغول (موجال) ؛ وبقيت تلك الدولة قائمة حتى عام ١٨٥٧ ، عندما قضى عليها الانجليز ؛ فكانت آخر دولة هندية قاومت المستعمرين قبل أن يبسطوا سيطرتهم الكاملة على الهند . . . ولا يزال المسلمون يذكرون أنه كانت لهم دولة قائمة في بلاد الهند قبل تسعين سنة .

وإلى جانب ذلك فإن قصة استقرار الاسلام وانتشاره في الهند لا تخلو من طرافة ، وهي ولا شك تفيد في تفهم فكرة باكستان وردها إلى أصولها الأولى في الدين والاجتماع والسياسة . فالاسلام يختلف عن غيره من أديان في أنه كثيراً ما يجمع بين أمور الدنيا وأمور الدين . وهو في الهند بالذات قد احتفظ بصفته هذه إلى حد بعيد ، لا سيما في الأجزاء الشمالية والشمالية الغربية من شبه الجزيرة ، حيث اتصل انتشار الدين بتوسع سلطة الحاكين من المسلمين . ومع ذلك فلم تكن تلك قصة انتشار الاسلام في الهند كلها؛ فهناك أمثلة معروفة تبرز أن دخول طوائف كبيرة من الهنود في الاسلام لم يترتب على قهر أو قسر ، وإنما جاء نتيجة للنظام الاجتماعي والديني السائد بين الهنود ، وما انبنى عليه من وجود طوائف منبوذة ، وجدت في اعتناق الاسلام مخرجاً مما هي فيه ، ووسيلة لأن ترفع مستواها الأنساني والاجتماعي بأن تدخل في زمرة المسلمين الذين يتساوون في العقيدة . وأغلب الظن أن انتشار الاسلام في بلاد البنغال

جاء عن هذه السبيل ، فتخلصت به طوائف كثيرة كان البراهمة والهنداك يضعونها بحكم العقيدة في مستوى اجتماعي حضيض . ويبدو أن هذه العناصر تعصبت للإسلام بعد أن اعتنقته أكثر مما تعصب له المسلمون الأصليون من الغزاة ؛ بل لعلها أن تكون قد ورثت في دسائها روحاً هي أقرب إلى التشفى منها إلى التسامح الذي كان ينبغي أن يهديها إليه دينها الجديد . وقد يجد علماء النفس ، إن هم تعمقوا دراسته أسباب الشحنة والتناذب بين طوائف الهند من المسلمين والهنداك ، أن روح الانتقام والتناحر قد تكون أقوى بين الهنود في المناطق التي كان انتشار الإسلام فيها على حساب الديانات المحلية وبين طبقات النبوذيين وأشباههم منها في المناطق التي جاء المسلمون فيها كجهد غزاة فرضوا سلطانهم على الأهالي ولم ينشروا عقيدتهم بين النبوذيين منهم . وقد يكون خير مثال لذلك ما نراه من قلة المشاحنات الطائفية في إمارة حيدرآباد ، حيث الطبقة الحاكمة من المسلمين والغالبية المحكومة من الهنداك ، وذلك كله بخلاف الحال في مناطق البنغال حيث التناحر والتناحر لا يزال على أشده .

وهناك منطقة أخرى انتشر فيها الإسلام ، وكثر التناحر بين المسلمين وغيرهم ، هي منطقة البنجاب ، وبعض جهات الشمال الغربي . ولكن التناحر هنا يمكن رده إلى عامل آخر غير ما نراه في البنغال ؛ ذلك أن الإسلام في البنغال لم يجد ديانة واحدة قوية متمسكة تستطيع أن تقف في طريقه ، فاكتمت المنطقة اكتساحاً في خلال خمسة قرون أو ستة بعد القرن الثاني عشر الميلادي . أما في شمال الهند الغربي فإن العقائد البراهمية كانت قد انتصرت على الديانة البوذية قبل وصول الإسلام ؛ فلما جاء المسلمون وجدوا أمامهم ديانة قوية منتصرة ، وحياة روحية أبعد ما تكون عن الانحلال ؛ وبذلك كان على الإسلام أن يكافح من أجل المحافظة على كيانه وسلطانه ، حتى يقال إن البنجاب لم تتحول إلى الإسلام في نطاق واسع إلا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وذلك رغم قربها من موطن الإسلام ورغم وقوعها في طريق الغزاة من المسلمين . ولا تزال في هذه المنطقة ، وفي شمال الهند الغربي أقليات قوية من غير المسلمين ؛ ففي مقاطعة البنجاب لا يزيد المسلمون على ٥٧ ٪ من السكان ، والباقون من الهنداك والسيخ . بل إن

إمارة كشمير ذاتها ، وبها كثرة من المسلمين تبلغ السبعين في المائة ، لا يزال يحكمها أمراء من غير المسلمين .

وإلى جانب ذلك كله فإن هناك مناطق بالهند جاء انتشار الإسلام إليها عن طريق آخر غير طريق الفتح أو الاعتناق تخلصاً من بعض الأوضاع الاجتماعية الهندية ؛ ففي غرب الهند وجنوبها ، وعلى ساحل ملابار بصفة خاصة ، جاء انتشار الإسلام عن طريق التجارة . فقد بدأ التجار العرب والفرس يستقرون على الساحل وفي بعض موانئه ابتداء من القرن الثامن الميلادي ؛ وكانت علاقة التجار المسلمين هناك حسنة ووثيقة بالحكام الهنالك ؛ فانتشر الإسلام عن طريق المخالطة والتبشير . ولولا وصول البرتغاليين بعد عهد الاكتشافات لشمل الإسلام نسبة عظمى من سكان ساحل ملابار .

من كل هذا يتبين أن انتشار الإسلام بين الهنود ، وفي مختلف أرجاء الهند كان ظاهرة معقدة ، اختلفت الدوافع إليها من إقليم إلى إقليم . ولعل في ذلك ما يزيد من تعقد الأحوال في الهند ؛ بل لعل فيه ما يعكس صورة من اختلاط الأمور في هذا العالم الهندي ، حيث تتعدد الأوضاع وتتغير الصور وتختلف الأسباب والمظاهر ، حتى في حالة الديانة الواحدة ، كما هي الحال بين المسلمين .

فاذا ما انتقلنا بعد هذه العجالة التاريخية إلى دولة باكستان ونشأة فكرتها أو بعث فكرة الدولة الإسلامية الحديثة في الهند ، فإننا نلاحظ أموراً جوهرية : أولها أن هذه الفكرة إنما نبتت في إقليم شمال الهند الغربي ، وهو الوطن الروحي والعسكري الأول بالنسبة للإسلام في الهند ، بل هو الإقليم الذي احتك فيه الإسلام كما ذكرنا بعقائد هندية قوية مزدهرة ، فاشتبك بها في صراع قوى لم تكن له فيه الغلبة إلا بعد كفاح طويل . ثم إن هذا الإقليم في الوقت ذاته كان مدخلاً قديماً لعناصر متتابعة جاءت إلى الهند من داخلية آسيا في موجات متتالية ، لم تكن موجة المسلمين إلا أخراها . ولذلك فقد عاشت في هذا القسم من الهند سلالات كثيرة من ذرية الفاتحين ؛ وهؤلاء دخلوا في الإسلام ، أو دخلت كثرتهم فيه ، بالتدريج ؛ فأصبح المسلمون هنا ذوى تكوين جنسى يميزهم على غيرهم من سكان شمال الهند الشرقى مثلاً ، حيث انزوت العناصر المستضعفة أمام موجات الغزاة ؛ أو من سكان جنوب الهند ، حيث طوردت أضعف العناصر وأقدمها وأبعدها عن التجديد والاحتكاك الثقافي بالعالم

الخارجي . لذلك كله لم يكن غريباً أن تنبعث فكرة باكستان كرسالة دينية وسياسية في هذا الاقليم الشمالى الغربى من أقاليم الهند . . . بل قد يكون انبعاثها في هذا الاقليم قبل غيره دليلاً من دلائل القوة التي أخرجت الفكرة من حيز الخيال إلى حيز الممكن ، ثم لم تلبث أن جعلت منها حقيقة واقعة ، في وقت لم يكن فيه كثير من الناس يعتقدون إمكان تحقق فكرة باكستان على هذا النحو السريع !

وثاني هذه الأمور التي يجب أن نلاحظها هو أن فكرة باكستان ، كغيرها من الأفكار التي تظهر في بلاد عريقة في المدنية وحافلة بأحداث التاريخ كبلاد الهند ، إنما سبقت تحقيقها مرحلة من الفكر والفلسفة السياسية لدى نفر من مفكرى المسلمين في الهند . فهي لم تنشأ كحركة شعبية ، وإنما بدأت كفكرة فلسفية سياسية ، لبي الشعب المنادى بها لأنها مست حياته الروحية . حركت مشاعره العاطفية ، فاستجاب لها كما تستجيب الشعوب لما يهديها إليه قادة الفكر . وقد استندت فكرة باكستان كما نعرفها أول ما استندت إليه إلى فلسفة الشاع الهندي محمد إقبال ؛ فقد أصدر في خلال الحرب العالمية الأولى ديواناً يفوم الشغرفيه على فلسفة القوة ، وبعث بذلك في نفوس المسلمين من الهنود رغبة ملحة في أن يستعيدوا مجدهم الفائت وقوتهم الضائعة ، ودفعمهم إلى أن يؤمنوا بأنه لا سبيل إلى محيى الأجلام إلا إذا استيقظ النائم وسعى القائم ، وخرج الناس من حيز الفكر إلى حيز العمل . . . والعمل القوى الفعال ! ثم تبع إقبال الزعم رحمت على ، فأعرب بطريقة أوضح عن آمال المسلمين في الهند وأمانهم ، وقال في عام ١٩٣٣ بضرورة إنشاء دولة إسلامية كبرى تسمى « باكستان » وتأنلف من ولايات خمس في شمال الهند الغربى هي بنجاب والولاية الشمالية الغربية (ويسمى سكانها أنغان) وكشمير (وهي إمارة) والسند وبلوخستان (١) . كما يجوز أن تنشأ على نمطها أو أن تنضم إليها دولة « بانجسلام » وهي بنغالة وأسام ودولة « عمانستان » وهي حيدر آباد والدكن ؛ ومع ذلك فان آراء رحمت على كان يتقصها التبلور والتحديد العمل من بعض

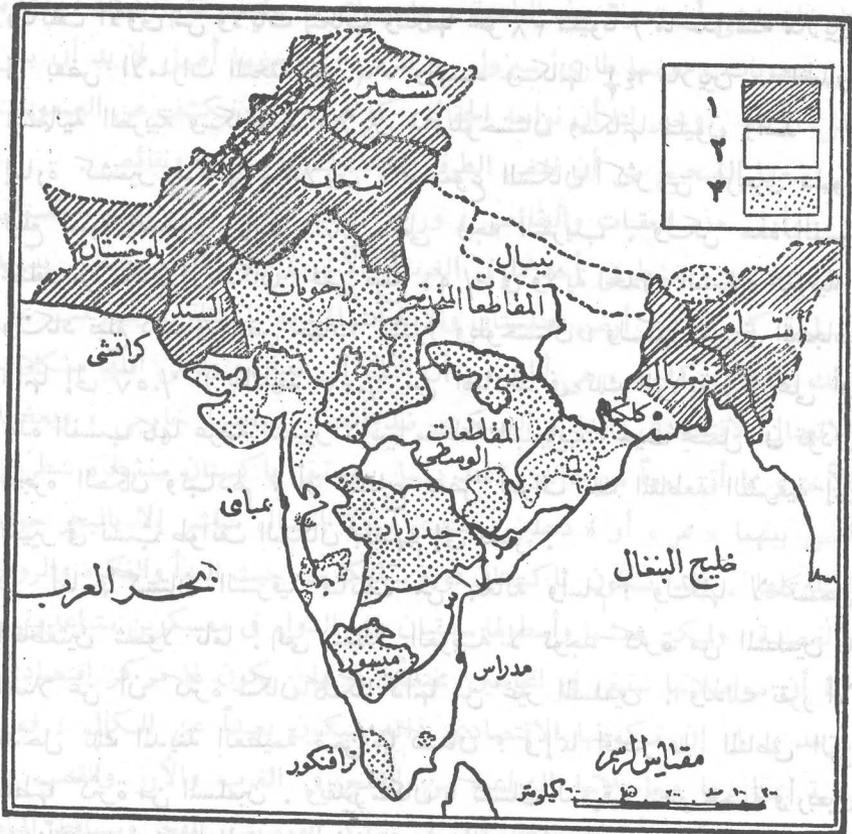
(١) إذا أخذنا الأحرف الأولى من أسماء بنجاب وافغان وكشمير وسند والأحرف الثلاثة الأخيرة من بلوخستان خرجنا بلفظ « باكستان » . ومن الطريف أن هذا اللفظ يعنى باللغة الأوردية والفارسية « أرض الظاهرين » .

الوجوه ؛ فهو مثلاً قد حاول أن يقرن ولو من بعيد بين المناطق التي تكون كثرتها من المسلمين ، كما هي حال باكستان وشرق البنغال وأسام ، وتلك التي تحكمها أقلية إسلامية ولكن كثرة أهلها من الهنادك ، مثل إمارة حيدر آباد ولذلك كله بدت آراؤه بعيدة المرام عن بعض المفكرين من المسلمين ؛ بل إن المسلمين في جملتهم بقوا فترة من الزمن يزاوجون بين جهودهم وأمانهم وبين جهود بقية الهنادك وأمانهم في مدافعة الانجليز ؛ وجاء وقت اتفقت فيه الرابطة الاسلامية ، وهي تمثل كثرة المسلمين ، مع حزب المؤتمر ، وكثره من الهنادك . . . اتفقا على الكفاح المشترك ضد الانجليز ، والمطالبة باستقلال الهند عامة ، دون نظر إلى تقسيمها على أساس طائفي أو سياسي . حتى إذا ما جاء دستور الهند في عام ١٩٣٥ ، وضع على أساس ديمقراطي في ظاهره ، ولكنه ينتهي آخر الأمر بأن يبقى المسلمون في الهند قلة تتحكم فيها كثرة دائمة من الهنادك . فالمسلمون وإن كانوا في الهند كلها يزيدون على التسعين مليوناً ، فان الهنادك بمختلف طوائفهم يزيدون على ثلاثة أمثال ذلك العدد . فاذا فرض أن استقلت الهند الموحدة بأسورها فسيبقى المسلمون على الدوام قلة في المجالس النيابية ، وفي الحكومة المركزية . وإن كانت لهم الكثرة في بعض الحكومات المحلية ، وحتى إذا اقتصر الاستقلال على الهند البريطانية دون الامارات فسيكون مجموع المسلمين في الولايات أقل من ثمانين مليوناً يقابلهم أكثر من مائتي مليون من غير المسلمين (١) ؛ وفي ذلك ما يهدد كيانهم ، ويبدلهم من استبداد الطغاة من الانجليز تحكم الكثرة الساحقة من الهنادك . لذلك كله لاح الخلاف بين الرابطة الاسلامية وحزب المؤتمر منذ عام ١٩٣٥ ؛ ثم ازدادت في عام ١٩٣٧ عندما شرع في تطبيق قانون استقلال ولايات الهند البريطانية . ثم جاءت الحرب فاخنتي الخلاف ، ولكن ليعود فيظهر ويتجدد في عام ١٩٤٠ ، عندما أعلنت الرابطة الاسلامية في مؤتمر لاهور عزمها على الاستمسك إلى النهاية بميثاق باكستان ، على أن تشمل المناطق التي تقطنها كثرة من المسلمين في شمال الهند الغربي وشمالها الشرقي . وما زالت الرابطة بزعامة رئيسها محمد علي

(١) كان مقدراً أن يكون للمسلمين ٨٠ نائباً في الجمعية التأسيسية الأخيرة من مجموع أعضائها ويبلغون ٣٨٩ عضواً . ولذلك قاطعت الرابطة الاسلامية تلك الجمعية .

جنة تكافح وتناضل حتى فازت باقرار ميثاقها ، وتقسيم الهند البريطانية إلى باكستان واتحاد الهند أو هندستان على نحو ما هو معروف . وتم ذلك رسمياً عندما تخلت بريطانيا عن سلطاتها المحلية إلى الدولتين الجديدتين في ١٥ أغسطس من هذا العام .

وينبغي أن يكون ملحوظاً أن مشروع التقسيم الجديد (راجع الخريطة) لا يشمل الهند كلها ؛ وإنما يشمل ما يعرف باسم الهند البريطانية ، وهي الخاضعة للحكم البريطاني المباشر . أما « إمارات » الهند (ولكل منها أمير يتمتع بالحكم الاسمي على الأقل) فقد تركتها بريطانيا عن قصد حرة تختار بين



خريطة تبيّن تقسيم الهند على النحو الآتي :

(١) باكستان [بما فيها إمارة كشمير] . — (٢) ولايات اتحاد الهند أو هندستان [وينتظر أن تنضم إليها بعض الامارات] . — (٣) الامارات الهندية ذات الاستقلال الاسمي ، ولها الحق في الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها .

الانضمام إلى إحدى الدولتين الهنديتين أو الاحتفاظ باستقلالها والارتباط ببريطانيا بمعاهدة إن هي أرادت ذلك . . . وعدد الامارات في الهند كبير ، ولكن من بينها عدد قليل من الامارات الكبرى ذات الشأن ؛ ومنها إمارة كشمير وهي قد اتحدت مع باكستان ، وإمارة حيدرآباد وقد اختار حاكمها المسلم أن يبقى على الحياد فيحفظ باستقلاله ، ثم ولايات كبيرة أخرى مثل ترافنكور وغيرها ، مما لا ينتظر أن يبت في أمره إلا بعد حين .

وباكستان في صورتها الجديدة تشمل منطقتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى . تقع الأولى في شمال الهند الغربي ؛ وتقع الثانية في شمالها الشرقي . وتأتلف الأولى من ولايات بنجاب وسكها نحو ٢٨ مليوناً (ما عدا ستة ملايين في بعض الامارات الملحقة بها) ، والسند وسكها ١٤ ملايين ، والحدود الشمالية الغربية وسكها ٣ ملايين ، وبلوخستان وسكها مليون واحد ، ثم إمارة كشمير وسكها ٤ ملايين ؛ فمجموع السكان أكثر من أربعين مليوناً تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٧٠٪ على وجه التقريب . ولكن هذه النسبة تختلف من مكان إلى مكان ؛ فهي تبلغ ٩٠٪ في ولاية الحدود الشمالية الغربية . وتكاد تبلغ ذلك في بعض جهات كشمير وبلوخستان ؛ ولكنها تقل في البنجاب ذاتها إلى ٥٧٪ (يقابلهم ٢٧٪ من الهنادك في تلك الولاية) . على أن هذه النسب كلها عرضة للتغيير لا سيما مقاطعة البنجاب ، حيث يحتمل أن تؤدي هجرة السكان وتبادلهم ، أو اقتطاع بعض أطراف تلك المقاطعة الشرقية إلى تغيير في نسب طوائف السكان بعضهم إلى بعض .

أما باكستان الشرقية فتألف من بنغالة وأسام ؛ ولكنها لا تشمل المقاطعتين شمولاً تاماً . ففي بنغالة الغربية لا توجد كثرة من المسلمين ، فضلاً عن أن كثرة سكان كلكتا ذاتها من غير المسلمين . ولذلك تقرر ألا تدخل تلك المدينة العظيمة ضمن باكستان ؛ وإنما اقتصر على المناطق التي تقطنها كثرة من المسلمين . ويقدر سكان باكستان الشرقية بنحو خمسة وأربعين مليوناً ، تناهز نسبة المسلمين بينهم السبعين في المائة . فإذا ما ضمنا باكستان الشرقية إلى باكستان الغربية أصبحت جملة سكان الدولة الجديدة أكثر من ثمانين مليوناً ، بينهم نحو الستين مليوناً من المسلمين .

فدولة باكستان إذن يمكن اعتبارها - من حيث عدد السكان - دولة

كبرى . وقد كانت حجة المسلمين دائماً أنهم وإن كانوا يمثلون أقلية في داخل الهند كلها ، فإن عددهم الكبير ، وما يحتلونه من مساحة واسعة تبلغ زهاء نصف المليون من الأميال المربعة (هي مساحة شطرى باكستان) ، كل ذلك مما يسوغ قيام دولة قائمة بذاتها . وتلك ولا شك حجة لها قيمتها ووزنها ، لا سيما أننا نجد من تاريخ الاسلام والمسلمين في الهند ما يسوغ احتفاظهم بكيانهم السياسى والقومى الخاص . وفوق ذلك فإن دولة باكستان ستكون بتكوينها الجديد أكبر دولة إسلامية في الشرق كله . ولا شك أن قيامها سيضيف قوة هائلة إلى ما يمكن أن يكون للعالم الاسلامى من شأن في المستقبل . ومع ذلك كله فلا ينبغي أن تعيننا هذه الناحية عن استجلاء ما يكتنف قيام الدولة الجديدة من صعوبات ، بعضها طارىء سيزول مع الزمن ، وبعضها أصيل لا بد أن يبقى على الأيام . وخير لنا أن نواجه الحقائق كما هي ، وأن نكشف عن الصعوبات في وضعها الصحيح من أن نغض الطرف عما هناك من عقبات وتفاصيل . وأولى هذه العقبات والتفاصيل ، وربما كانت أهمها ، أن دولة باكستان تنقسم قسمين منشطرين أحدهما في الغرب والآخر في الشرق ، وتفصل بينهما مساحة كبيرة من أرض هندستان والامارات الهندية المستقلة . وسيترتب على ذلك مشكلات كثيرة ، هي أظهر من أن تحتاج إلى تبيان ، وليس أقلها مشكلات الاتصال لاقتصادى والدفاع العسكرى ضد أخطار ، بعضها خارجى ، وبعضها الآخر ربما أتى يوماً من داخل الهند ذاتها . وستبقى باكستان منشطرة شطرين ليس بينهما « ممر » أو « دهليز » هندى ، ولا اتصال مباشر إلا بالبحر حول الهند كلها . وقد تكون باكستان قوية متمسكة من حيث البدأ والفكرة والروح والعصية ، ولكن جيشها وأسطولها سيقتيان على الدوام في معسكرين متباعدين ، كما أن مواصلاتها ستبقى في اتجاهين مختلفين ؛ ولن يكون لها مركز اقتصادى موحد ، بل إن تكوينها الاقتصادى ذاته سيكون بعيداً عن الكمال ؛ فهي غنية بمواردها وحاصلاتها الزراعية من القمح في الغرب والأرز والقنب في الشرق ، ولكنها أفقر من هندستان في موارد القوة من الفحم ومساقط المياه وأدوات الصناعة الحديثة ، مما يتركز في السواحل الغربية عند بمباى أو في منطقة أوريسا عند جنوب البنغال الغربى . وفضلاً عن ذلك فإن إقليم بنغالة ذاته قد اقتطعت عاصمته وسوقه الكبرى كلكتا ، فأضيفت إلى اتحاد الهند (هندستان)

على حين بقيت أراضيه الشرقية ومزارعه الواسعة ضمن باكستان . فهذه المشكلات الاقتصادية المتنوعة تضاعف ولا شك من آثار المشكلة العسكرية في الدفاع عن بلد مشطور كباكستان .

وستواجه باكستان نوعاً ثالثاً من المشكلات (غير المشكلات الاقتصادية والعسكرية) هو مشكل الأقليات . فالمسلمون في باكستان لا يمثلون أكثر من سبعين في المائة ، وبقية السكان من الهنالك والسيخ وغيرهم . ولا يمكن أن نتصور أن يكون من الميسور نقل السكان وتبادلهم بين هندستان وباكستان بحيث نخرج من الأخيرة غير المسلمين ، وننقل إليها بقية المسلمين من الهند . فالمصالح الاقتصادية والظروف المادية قد لا تجعل ذلك كله في حيز الامكان إلا بقدر محدود . بل إننا قد رأينا أن بالهند جهات بها كثرة هندوكية تحكمها طبقة مسلمة ، وجهات أخرى بها كثرة مسلمة تحكمها طبقة من الهنالك . ولقد جربت عملية نقل السكان وتبادلهم في نطاق ضيق ، في حدود مئات الآلاف ، في بعض جهات أوروبا (بين اليونان وتركيا مثلاً) ؛ ولكن التبادل في نطاق عشرات الملايين ، كما هو مطلوب في الهند ، أمر أخطر كثيراً وأصعب كثيراً ، لا سيما في بلد تسود فيه الحزازات والمشاحنات ، ويصعب فيه الاتصال ويشق التنظيم . وقد لا تطول التجربة باخواننا الهنود في كل من باكستان وهندستان قبل أن يستبينوا أن تبادل السكان في الهند ليس مما يمكن تحقيقه إلا في نطاق محدود ، وأن الصالح المتبادل يقضى بأن تحسن الأغلبية معاملة الأقلية بدلا من أن تحاول التخلص منها . . . والمستقبل وحده ، وما قد يأتي من دروس ، كفيل بأن يبرز لأبناء الهند حكمة التكافل وقيمة التكامل بين الأغلبية والأقلية في كيان الأمم !

ونستطيع أن ندرك ضرورة التعاون بين الدولتين الحديثتين وما يقع بينهما من إمارات مستقلة إذا ما تذكرنا مرة أخرى (راجع الخريطة) أن مشروع التقسيم الجديد لا يقسم الهند إلى دولتين اثنتين ؛ وإنما يترك المجال أمام عدد كبير من الإمارات لتعلن استقلالها إن هي أرادت ذلك ، ولترتبط ببريطانيا ارتباطا اقتصاديا أو عسكرياً قد يهدد من قريب أو بعيد ، ما حصلت عليه الهند من ميزة الاستقلال . وقد يكون خروج الانجليز من الهند أمراً نهائياً ؛ ولكنه قد يكون موقوتاً إلى حين ، أو إلى أن يجد البريطانيون ما يسوغ التدخل ولو على

نحو غير مباشر ، وفي صورة جديدة تختلف عن تدخلهم السابق . ولكننا حتى إن افترضنا أحسن الفروض فلن نستطيع أن نستبعد من الحساب أن باكستان ستشعر دائماً أنها دولة كبيرة في حد ذاتها ، ولكنها على كل حال أصغر كثيراً من هندستان التي قد يبلغ عدد سكانها في النهاية ما يقرب من ثلاثة أمثال عدد سكان باكستان . وليس عدد السكان كل شيء في حياة الأمم بالطبع ، ولكنه قد يكون عامل إغراء بالضعف ؛ وقد تلمس باكستان أن تستعاض عن ذلك باكتساب شعور بقية المسلمين في هندستان إلى جانب إخوانهم في باكستان ؛ إذ قد تحاول الاستعاضة عنه بما يرضى المسلمون في غرب آسيا وجنوبها الشرق على الدولة الناشئة من شعور بالعطف . ولكن الخير في رأينا أن يكون رجال باكستان عمليين إلى القدر الذي تفرضه ظروف دولتهم الجديدة ، وما يكتنف قياسها من صعوبات لا يزالون من معالجتها في أول الطريق وعند أسفل الدرج . وليس من شك في أن من الخير للهند بشطريها أو أشطرها العديدة ألا تؤدي القسمة السياسية إلى قسمة في الميول والاتجاهات الدولية ، ولا إلى إغراق في المنازعات الطائفية التي تفتح الطريق إلى المنازعات الدولية . بل خير للهند في مجموعها وللشرق في جملته أن يحتفظ أبناء الهند جميعاً بنوع من الوحدة في الغاية السياسية التي ترمي إلى التحرر من الماضي القريب ومن أعقاب الاستعمار ، فيدركوا أن تقسيم الهند إن كان مما يتسق مع مقتضيات البيئة الطبيعية ، ويتفق وتقاليد التاريخ البشري ، كما يرضى نزعة العصبية الدينية والقومية في تلك البلاد ، فإن مصالح المادة تقتضي أن تحتفظ أجزاء الهند بنوع من الرباط فيما بينها ؛ فيقوم في الهند على الزمن اتحاد أم هندية ، قد لا نستطيع أن نرسم معمله الآن ، ولكنه يكون وقاء لبلاد الهند من أن تتنازعها عوامل التمزق ؛ فتضيع ربح أهلها من الهنادك والمسلمين ، ولا يفيد من ذلك غير أولئك الذين يعرفون كيف يفيدون من الظروف !

الهند بلاد فسيحة كما ذكرنا في مطلع مقالنا السابق ، تناهز مساحتها ثلث أوروبا ، ويقارب عدد سكانها سكان تلك القارة ، ثم إنها بلاد عريقة في المدنية ، بدونها لا تكتمل للشرق صورته المعروفة . ولقد كانت رغم انقساماتها الكثيرة مركزاً عظيماً من مراكز الثقافة البشرية ، ومهداً عريقاً من مهدات

الفكر الفلسفي ؛ نبتت فيها بعض العقائد والديانات التي انتشرت نحو الشمال ونحو الشرق ، والتي حمل أنصارها رسالتهم إلى العالم الخارجي بالبر والبحر ، كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التي نقل عنها الشرقيون في غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهي إلى ذلك كله تعتبر قلب الشرق الآسيوي إلى يومنا هذا . وإنه لمن خير الانسانية جميعاً أن تحتفظ تلك البلاد العريقة بطابعها الهندي وبمكائنها التاريخية ، فلا تحول الانقسامات والحزابات وما قد تخر إليه من تناحر واضطراب دون أن تبقى الهند وحضارتها على الزمن ، ودون أن يستطيع أبنائها — على مختلف طوائفهم — أن يساهموا في حياة البشر وفكرهم في قابل الأيام بمثل ما ساهم به أسلافهم في ماضيهم الحافل العتيق .

سليمان مرزبان

إلهة الهند ، ورواياتها غنية جداً ، والديانات التي نشأت في تلك البلاد ، والتي انتشرت في الشرق الآسيوي ، والتي حمل أنصارها رسالتهم إلى العالم الخارجي بالبر والبحر ، كما ظهرت فيها بعض ألوان الفكر والفلسفة التي نقل عنها الشرقيون في غرب آسيا وشرقها على حد سواء . وهي إلى ذلك كله تعتبر قلب الشرق الآسيوي إلى يومنا هذا . وإنه لمن خير الانسانية جميعاً أن تحتفظ تلك البلاد العريقة بطابعها الهندي وبمكائنها التاريخية ، فلا تحول الانقسامات والحزابات وما قد تخر إليه من تناحر واضطراب دون أن تبقى الهند وحضارتها على الزمن ، ودون أن يستطيع أبنائها — على مختلف طوائفهم — أن يساهموا في حياة البشر وفكرهم في قابل الأيام بمثل ما ساهم به أسلافهم في ماضيهم الحافل العتيق .